التطور الاجتماعي في مصر بين رحلتي بتس وبيرتون

محمد إلهامي[1]

مقدمة

تركت الرحلة إلى الحج ثروة تاريخية لا تقدر بثمن، وذلك من بركات هذه الشعيرة المباركة وثمراتها الغزيرة.

لقد ألقى الله محبة بيته الحرام في القلوب، فاشتعلت إليه شوقاً، فسارت الجموع منذ لحظة نداء إبراهيم عليه السلام إليه رجالاً وعلى كل ضامر، وصنعت رحلة الحج أوضاعاً تاريخية وجغرافية أوسع من الحصر، وكتب المسلمون مؤلفات واسعة في رحلتهم إلى بيت الله الحرام، فحفظوا لنا تاريخاً عزيزاً وثروة ما كان بالإمكان التحصل عليها بغير هذا السبيل.

لم تكن أنظار المسلمين فقط، بل سار إلى البيت الحرام عدد من غير المسلمين يريدون استكشاف أمره واكتناه سره، فلقد أحيطت مكة والكعبة بالكثير من الأساطير كونها المكان الذي انبعث منه الإسلام ووُلِد فيه محمد (صلى الله عليه وسلم)، لقد كان القساوسة الأوروبيون في العصور الوسطى يعتقدون أن المسلمين يحجون إلى مكة ليَرَوْا نبيهم في الهواء في وسط حلقة حديدية موضوعة في نقطة اتزان وسط قبة حجر مغناطيسي فيحسب المسلمون أن نبيهم معلق في الهواء وأنها من معجزاته[2]، وفي عصور الاستعمار بعيْد انطلاق ما يسمى بعصر الكشوف الجغرافية والرحلات كان بديهياً أن تتطلع أنظار الرحالة الغربيين إلى المدينة الأقدس لدى المسلمين وإلى الرحلة الفريدة التي تجمع شتاتهم مرة في كل عام.

تبحث هذه الورقة في رحلتين من رحلات غير المسلمين إلى الحج، لتستكشف منهما صفحة من التاريخ الاجتماعي للمصريين، باعتبار المجتمع المصري واحداً من أهم المجتمعات المحلية التي كانت مركزاً من مراكز عبور الحجيج إلى مكة، ففيه تجلت العديد من الصور: السياسية والاقتصادية والثقافية لما لمصر من موقع جغرافي وثقل علمي ووفرة مالية وقوة بشرية، وبهذا صارت مصر مركزاً شرقياً لم يفقد أهميته –في أمر الحج ورعاية الحجيج والحرمين– منذ دخله الإسلام وإلى وقت قريب بعد اختراع الطائرات وظهور النفط في الجزيرة العربية، ففي مصر رُبِط الشرق الإسلامي بغربه علمياً وثقافياً، وكان اقتصاد الحرمين لزمان طويل فرعاً من الاقتصاد المصري، وكانت الهيمنة السياسية على الحرمين لزمن طويل هيمنة مصرية. كذلك قصدت الورقة أن تفهم المجتمع المصري وترصد تطوره من خلال رحالتيْن غربييْن وذلك لقلة ما تعرض الباحثون لهذا الأمر مقارنة بتعرضهم له في مؤلفات الرحلة العربية.

---

[1] باحث مصري في التاريخ والحضارة الإسلامية

Blogger - Facebook - twitter - telegram - Ask - yotube - Goodreads - google plus

[2] أفوقاي الأندلسي، **رحلة أفوقاي الأندلسي**، تحرير: د. محمد زروق، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤م)، ص٨٠.

وقد وقع الاختيار على رحلتي جوزيف بتس وريتشارد بيرتون لأسباب أهمها: أنهما من أهم الرحلات الأوروبية للبيت الحرام؛ فرحلة بتس من أوائل تلك الرحلات ورحلة بيرتون من أوسعها وأكثرها تفصيلا، ويفصل بينهما قرنان من الزمان تغير فيهما الكثير وبالذات في مصر التي دخلت في طور الدولة الحديثة واندمجت بالنموذج الغربي، فقد كان رحلة بتس في عصر المماليك تحت السيادة العثمانية، بينما كانت رحلة بيرتون في أعقاب وفاة محمد علي باشا الذي أسس حكماً مستقلاً في مصر وأنشأ دولة على النمط الغربي في المؤسسات والإدارة، ومن ثم ظهرت فروق واضحة بين العصرين تُمَكِّن من رصد تطورات فارقة.

قُسِّمت مادة الورقة إلى أربعة مباحث:

(١) شعيرة الحج كما يراها المستشرقون

(٢) الرحلات الغربية للحج: التاريخ والأغراض

(٣) رحلتا بتس وبيرتون: وصف ومقارنة

(٤) أحوال المجتمع المصري بين قرنين

شعيرة الحج كما يراها المستشرقون

حَضَرَتْ رحلةُ الحج في الدراسات الغربية بطريقَيْن؛ الأول: دراسات المستشرقين التي اضطرت لتناول الحج لكونه الركن الخامس من أركان الإسلام، ولهذا فإنه موضوع حاضر في الدراسات البسيطة المختصرة والدراسات الموسعة معاً. والثاني: كتب الرحالة الغربيين الذين حرص بعضهم على التنكر وحضور الحج بنفسه أو ساقته أقداره إلى الحج مثل فارتيما الإيطالي وبوركهارت السويسري وسنوك هروخرونيه الهولندي –والذي أعد رسالته للدكتوراة عن الحج[٣]– وجوزيف بتس الإنجليزي وبيرتون الأيرلندي وغيرهم.

وقد تعددت الآراء والأنظار في فهم الحج ومعانيه وآثاره، ونظر إليه كل مستشرق في سياق بحثه، ففي تحليله لانتشار دعوة الإسلام يقول المستشرق البريطاني المعروف توماس أرنولد: "إن السيف كان يُمْتَشَق أحيانًا لتأييد قضية الدين، ولكن الدعوة والإقناع –وليس القوة والعنف– كانا هما الطابعين الرئيسين لحركة الدعوة هذه، وإن النجاح الرائع هو الذي أحرزه التجار بنوع خاصٍّ، الذين كسبوا السبيل إلى قلوب الأهالي... وإلى جانب التجار كانت هناك جموعٌ ممن يصحُّ أن نُسَمِّيَهم الدعاة المحترفين، وهم الفقهاء والحُجَّاج"[٤].

وفي تحليله لأوضاع المسلمين في إفريقيا يقول إيوان ميردين لويس –وهو عميد المستشرقين البريطانيين في الشأن الإفريقي– بأن الحج من أدوات الإسلام في صناعة هوية مشتركة، فالإسلام "يُوجِد رابطة هوية ومصلحة مشتركة تجمع بين المسلمين ذوي الأصول العرقية والانتماءات السياسية المختلفة، وذلك

---

[٣] انظر ترجمة موسعة له ومناقشة لمواقفه ورسالته عند: قاسم السامرائي، **الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية**، ط١ (الرياض: دار الرفاعي، ١٩٨٣م)، ص١١٠ وما بعدها.

وكتاب هروخرونيه حافل بالتفاصيل حتى أقرَّ د. محمد موسى الشريف بأن اختصاره متعذر بسبب "ضخامة المعلومات الواردة فيه وأهميتها وصعوبة اختصارها"، انظر: محمد موسى الشريف، **المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية**، ط١ (جدة: دار الأندلس الخضراء، ٢٠٠٠م)، ١٠/١.

[٤] توماس أرنولد، **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م)، ص٤٤٥.

ضمن الظروف المتغايرة في حياة المدن. هذا الاعتراف بتضامن إسلامي أوسع يتجسد بصورة حية في اشتراك الإفريقيين الواسع في الحج إلى مكة"، كما يشير إلى أثر الحج في انتقال اللغة العربية أساليبها ومفرداتها وحروفها الهجائية إلى أقصى شعوب الشرق الإسلامية كالملايو وسومطرة، فـ "الإسلام –بما فيه الحج– شبكة من الاتصالات مع الخارج"[٥].

ويظل المعنى الإيجابي الأبرز الذي كرره جمهور المستشرقين هو ما في الحج من دلائل المساواة بين الناس في الإسلام، يقول الكولونيل البريطاني المعجب بحياة المسلمين رونالد فيكتور بودلي: "الحج أعظم شاهد على ديمقراطية الإسلام؛ فهناك يجتمع المسلمون الأوربيون والآسيويون والإفريقيون، والصعاليك والأمراء، والتجار والمقاتلون في نفس الإزار البسيط الذي كان محمد [صلى الله عليه وسلم] وأتباعه يرتدونه في حجة الوداع عام (٦٣٢هـ)، إنهم جميعاً يتناولون نفس الطعام، ويتقاسمون نفس الخيام، ويُعَامَلُون دون تمييز، سواء أجاؤوا من مرافئ سيراليون أم من قصر نظام حيدر أباد، إنهم جميعًا مسلمون"[٦].

ومثله يقول المستشرق الأمريكي المشهور ذو الأصول اللبنانية فيليب حتي: "الحقُّ أن الإسلام قد وُفِّقَ أكثر من أديان العالم جميعًا إلى القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية، وخاصة بين أبنائه، ولا شكَّ في أن الاجتماع في موسم الحجِّ له الفضل الأكبر في تحقيق هذه الغاية"[٧].

وعلى الناحية الأخرى فأبرز المعاني السلبية التي كررها المستشرقون في شأن الحج هو مسألة "الوثنية"، حتى إن بعض المنصفين مثل دينيس سورا يقول: "إن محمداً يكاد يكون هو الوحيد الذي نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسي الأديان، إذ أن الخرافات لم تستطع أن تخيفه... فقد كان العرب يعبدون الجن والأرواح التي تقطن الأحجار، إلى جانب عدد من آلهة القبائل المختلفة. ولقد محا الإسلام هذا كله، ولم يبق منه سوى الحجر الأسود. فقد ظل موطن القداسة الجوهرية. إذ وضعه محمد تحت حماية الخليل إبراهيم. ومن الممكن أن تكون هذه سياسة قصد بها التوفيق. كما يمكن أن يكون ذلك ناشئاً عن احترام شخصي"[٨].

الرحلات الغربية للحج: التاريخ والأغراض

أول من ادعى الوصول إلى مكة المكرمة هو جون كابوت (١٤٨٠م) أي قبل سقوط الأندلس باثني عشر عاماً، لكن لم يصل إلينا شيء مما كتبه، أما أول ما وصلنا فهو رحلة الإيطالي لودفيجودي فارتيما (١٥٠٣م) والذي انتحل اسم يونس المصري وصفة جندي مملوكي، ثم جوزيف بتس الذي حج باسم "يوسف" (١٦٨٠هـ)، ثم تبعه الإسباني دومنيكو باديا ليبليج (١٨٠٧م) باسم "علي العباسي"، ثم تبعه الرحالة السويسري المشهور جون لويس بوركهارت الذي انتحل اسم "إبراهيم" ووصل إلى مكة (١٨١٤م)،

---

[٥] آي إم لويس، **الحدود القصوى للإسلام في إفريقيا وآسيا**، ضمن **"تراث الإسلام"**، بإشراف: شاخت وبوزوروث، ترجمة د. محمد زهير السمهوري وآخرين، سلسلة عالم المعرفة ٨ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٥م)، ١٣٥/١، ١٧٩.

[٦] ر. ف. بودلي، **الرسول حياة محمد**، ترجمة: محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، (القاهرة: مكتبة مصر، بدون تاريخ)، ص٣٣٩.

[٧] فيليب حتي، **العرب تاريخ موجز**، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩١م)، ص٦٠.

[٨] زكريا هاشم زكريا، **المستشرقون والإسلام**، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٦٥م)، ص٢٢١.

ثم الرحالة البريطاني ريتشارد بيرتون متخذا اسم "عبد الله" وصفة طبيب هندي ذي أصول أفغانية (١٨٥٣م)، ثم الفرنسي جيل جورفيه كورتلمون متخذاً اسم "عبد الله بن البشير" (١٨٩٤م).

لقد تعددت أغراض الرحلة إلى الحج، فثمة من كان مجبراً على ذلك لكونه عبداً مثل جوزيف بتس، وثمة من كان دافعه الفضول كما نرجح في كتابات من لم تش كتاباتهم بغرض آخر، وثمة من تبدو في رحلته الأغراض التجسسية كما في رحلة بيرتون البريطاني، وثمة من تصرح الدلائل حوله أن غرضه كان استعمارياً قحاً كما في رحلة هروخرونيه الهولندي.

وبالعموم فلئن غابت التجربة الروحية بالعموم عن الدراسات الغربية، فإنها قد تميزت برصدها الآثار الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بأكثر مما تعرضت له الرحلات العربية الإسلامية، وبعض ذلك راجع إلى العين الغريبة التي تنظر إلى الحدث الجديد فترصد فيه ما لا يلمحه من اعتاد عليه وبعضه الآخر راجع إلى مهمة الرحالة المهتمة بجمع المعلومات، بالإضافة لأمور أخرى.

رحلتا بيتس وبيرتون: وصف ومقارنة

جوزيف بتس ورحلته

كان جوزيف بيتس (١٦٦٣ – ١٧٣٥) بحارًا إنجليزيًا، وقع في أسر الجزائريين عند السواحل الإسبانية، وكان حينئذ في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره، وظل عبداً في الجزائر سنيناً ثم رافق سيده في رحلة الحج (١٠٩١هـ = ١٦٨٠م)، وهي أول رحلة تصف طريق الحج المصري في الشمال الإفريقي.

سلك بتس طريق البحر من الجزائر إلى الإسكندرية، ثم منها بحراً إلى رشيد، ثم نزل في النيل إلى بولاق، ثم براً إلى السويس ثم بحراً إلى الطور ثم إلى رابغ ومنها إلى جدة ثم إلى مكة، ثم إلى المدينة، ثم قفل راجعاً إلى القاهرة ثم الإسكندرية ثم الجزائر.

بيرتون ورحلته

أما ريتشارد بيرتون (١٨٢١ – ١٨٩٠م) فواحد من أهم الرحالة الأوروبيين، إذ نشر رحلاته في ثلاثة وأربعين مجلداً، وهو مكتشف بحيرة تنجانيقا، وترجم ثلاثين كتاباً من العربية والفارسية إلى الإنجليزية، وكان يتقن خمساً وعشرين لغة وأربعين لهجة، وطاف شرقاً وغرباً فزار باكستان والهند ومصر والحجاز وشرق إفريقيا وغربها والولايات المتحدة. ورحلته ثرية تدل على غزارة معارفه واتساع رحلاته.

وكانت رحلته إلى الحج كالآتي: ركب السفينة من ساوثمبتون البريطانية مبحراً إلى الإسكندرية، ثم عاش بها فترة، ثم سافر إلى القاهرة (براً أم بحراً)، ومنها براً إلى السويس، ثم إلى البحر الأحمر ونزل بالطور ثم إلى ينبع إلى المدينة المنورة، فكان حجه في عام (١٢٦٩هـ = ١٨٥٣م).

المقارنة بين الرحلتين

من بين اختلافات كثيرة برزت في الرحلتين فوارق أهمها:

١. **الاختصار والتفصيل:** جاءت رحلة بتس مختصرة وسريعة وطُبِعت في أقل من مائة صفحة وتكاد كل فقرة منها تمثل موضوعاً إذ يندر أن يشغل الموضوع أكثر من فقرة، بينما بلغت رحلة بيرتون ثلاثة

أجزاء، استغرق الأول سفره من بريطانيا وحياته بمصر حتى المدينة المنورة. ولهذا حفلت رحلة الثاني بتفاصيل مطولة وقضايا كثيرة لم يتطرق إليها الأول أو تطرق إليها في فقرة واحدة لا أكثر.

٢. **الموضوعية والذاتية:** وكانت رحلة بتس أكثر موضوعية بينما رحلة بيرتون أكثر ذاتية، فالأول يصف المدينة وآثارها والبحر والنهر والأهرام والأسماك والطيور والبط الذي يسبح في النيل وكيف يُصاد والخانات والأزياء والأسواق والبضائع والمباني وقطعان الماعز التي تدخل القاهرة وصاحبها الذي يحلبها مباشرة لمن يشتري منه اللبن كدليل على أنه لبن طازج وآبار المياه وكيف يُسحب منها الماء بالسواقي التي تجرها الثيران، يصف بتس كل هذا وَصْفَ المُشاهد المحايد الذي يرسم صورة موضوعية لما يراه[٩]. بينما الثاني يصف مشاعره ووقع المشاهد على نفسه ويمزج الصورة الخارجية بانعكاسها في نفسه وما يؤلفه خياله منها، لذا تأتي عباراته في الوصف على هذا النحو: "لنستمتع بالمشهد"، "فيعطي سحراً وفتنة تعجز اللغة في التعبير عنهما"، "كأنما كنا نستقبل هذا القفر بودٍّ شديد"، "وكأنها أرواح سلاطين تحرس رعايا من الأشباح في سلطنة من ظلال"، "الحرارة المنعكسة تصفعنا بشكل محسوس والوهج المنبعث من حصباء الطريق يكيل لنا مزيدا من الحرارة"... وهكذا[١٠]. ولعل هذا يُعزى إلى تطور الأسلوب الأدبي في أوروبا، فبتس الذي خرج من أوروبا فتى صغيراً وصار جزءاً من الشرق ليس كبيرتون الرحالة المثقف الموسوعي الذي قرأ أدب الرحلات قبله، لا سيما رحلات الشرق التي كان يتفنن الغربيون في إضفاء السحر والجمال على مشاهدها وحوادثها، وهو تقليد غربي مستقر منذ بدأ الاستشراق وإلى زمن قريب.

٣. **سائح ومستعمر:** وفيما كانت رحلة بتس رحلة سائح يصف ناظراً ومشاهداً، كانت في رحلة بيرتون لهجة استعلاء على الشرقيين[١١]، وفيها روحٌ استعمارية تند عنه كما في قوله "ليس من أحد أدرك أية فكرة عن الدور الذي كنت ألعبه خلا الذين كانوا مطلعين على السر من البداية"[١٢]، ثم ظهرت هذه الروح ناصعة واضحة في بعض مواضع كقوله: "أما الآن فإن السلطات الوطنية ليس لها سلطة قضائية على الغرباء، ولا تدخل الشرطة بيوتهم، وإذا أرادت دول الغرب أن تقوي من عزم المسيحيين الشرقيين المشاركين لها في العقيدة فيمكنها أن تفرض نظاما أشد مما هو عليه الآن بالسماح لكل الرعايا المسيحيين الشرقيين حَسَني الاعتقاد أن يسجلوا أسماءهم في القنصليات المختلفة التي قد يفضلون الحصول على حمايتها"[١٣]، وكقوله: "أي دولة تضمن السيطرة على مصر تكون قد ربحت كنزاً، فمصر تحيطها البحار من الشمال والجنوب، وتحيطها الصحراء التي لا يمكن اجتيازها من الشرق والغرب، ومصر قادرة على تجهيز ١٨٠ ألف مقاتل، وقادرة على دفع ضرائب ثقيلة، ويمكن أن تقدم فائضاً كبيراً، فلو وقعت مصر في أيدي الغرب سهلت السيطرة على الهند، ومَكَّنت من فتح إفريقيا الشرقية كلها بشق قناة للسفن تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عند السويس"[١٤]، وهو يرصد موقف الجهات التي

---

[٩] جوزيف بتس (الحاج يوسف)، **رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة والمدينة المنورة**، ترجمة ودراسة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٥م)، ص٢٩، وما بعدها، ٤٠، ٤١.

[١٠] ريتشارد ف. بيرتون، **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٤م)، ص٧٩، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٢.

[١١] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٤٦ وما بعدها، ٩٢، ٩٣.

[١٢] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٢٣.

[١٣] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص١٠٧.

[١٤] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٩٨، ٩٩.

يمكنها مقاومة الاحتلال وكيف ضعفت جهة العلماء التي هي الأشد في مجال المقاومة لحساب "رؤساء المؤسسات"، وسواء أكان يقصد رؤساء المؤسسات الإدارية بعد دخول الدولة في طور التحديث أو شيوخ الطرق الصوفية كما فهم المترجم، فالمهم أن هذه العقلية إنما هي عقلية محتل لا عقلية رحالة!

٤. **انفرادات الرحلتين:** وحيث كانت رحلة بيرتون أكثر توسعاً وتفصيلاً فقد انفرد فيها بأشياء كثيرة لم يأت بتس على ذكرها مطلقاً، فمن ذلك حديثه عن البقشيش وتدخين الشيشة والقهوة، وعن الدراويش والسحرة، والمذاهب الفقهية، وشهر رمضان واحتفالات العيد، وعن كرم الضيافة، وأنواع الخدم وصفاتهم، وعن العطارين وطلب العلم، وعن الطب وممارسته والمرضى وأحوالهم وتعاملهم مع الطبيب ونظرة الناس إلى الطب الأوروبي وكيف يحتقرونه مقابل تقديرهم للطب الهندي والصيني، ونظرتهم وعلاقتهم مع العجم (الذين هم: الفرس الشيعة) وكيف تعودوا على التقية وإخفاء حقيقة آرائهم وكيف يفهم المصريون هذا عنهم، وشهد بيرتون تنادي الناس بالجهاد ضد الروس في حرب القرم وهو مشهد لم يرد مثله عند بتس[١٥].

ومع هذا فأن الاختصار الشديد في رحلة بتس والتوسع في رحلة بيرتون لم يمنع أن ينفرد بتس بذكر أمور لم يذكرها بيرتون كحديثه عن الخصيان وهطول الأمطار –مصححاً بذلك خطأ شائعاً في وقته عن قلة الأمطار في مصر– والفيضان السنوي للنيل وأثره في الزراعة، والوصف الجغرافي لمصب النيل ورسو السفن[١٦]، ولعل بيرتون لم يحفل بهذا لانتشار الخرائط في عصره وكون هذا الكلام مما صار معروفاً أو مما تجاوزته تقنية السفن والموانىء، إلا أن إمساك بيرتون عن وصف الفيضان غريب، خصوصاً وقد كان في مصر قبيل وقت الفيضان وهو أمر يستعد له الناس!

لكن أهم ما يفرق بين الرحلتين هو آثار "التحديث" التي تبدو في رحلة بيرتون، فعلى غير ما يبدو للوهلة الأولى من أن التحديث عاد على البلاد بالقوة والرفاه والاستقلالية، نجد أن التحديث الذي أسس له محمد علي عاد بمزيد من الضعف السياسي والتبعية للغرب، ولم تكن القوانين في مصلحة الشعب بل في مصلحة تقوية السلطة ونفوذ الأجانب، فزاد بطش السلطة وتغولها، وتقوض الأمان الاجتماعي إذ صارت السلطة مصدر رعب بانتهاجها أسلوب خطف الشباب والرجال للتجنيد، وفرضها حظراً للتجوال ليلاً لمحاصرة أي ردود فعل شعبية،، كما لم توفر مؤسسة الشرطة الحديثة أمنا من اللصوص بل كان الخوف والتحرز منهم قائماً، كذلك فقد أهملت أوضاع المساجد باستيلاء الدولة على أوقافها، وكُسِرت القبائل والزعامات الأهلية، ولم تتحقق العدالة بنظام التقاضي الجديد بل صار يعاني من البطء الشديد، ولم توفر الإدارة الحديثة تسهيلات في الخدمات العامة بل غلب الكسل على الموظفين وتلقي الرشا لضعف –أو انعدام– جهة الرقابة، وتعقدت أمور أخرى كإجراءات السفر والحصول على تذكرة.. إلى غير هذا من المظاهر السلبية التي ترصدها بوضوح رحلة بيرتون[١٧].

أحوال المجتمع المصري بين قرنين

---

[١٥] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٢١، ٢٢، ٢٥ وما بعدها، ٤٦، ٥٢، ٥٧ وما بعدها، ٦١، ٦٣ وما بعدها، ٦٧ وما بعدها، ٧١، ٩٧، ١٠٩.

[١٦] جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٢٧ وما بعدها، ٤٠.

[١٧] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٣٠، وما بعدها، ٣٤ وما بعدها، ١٢٥.

تغير الكثير في مصر عبر مائتي سنة، ما بين عهد المماليك تحت السيادة الاسمية للعثمانيين وبين عصر الجبار محمد علي وأولاده، لقد شهدت مصر نظاماً جديداً يدخل عليها مع محمد علي الذي استقل بها من السيادة العثمانية وقلب نظامها السياسي وميزانها الاجتماعي وخططها الاقتصادية[١٨]، وقد بدا هذا واضحاً في صفحات الرحلتين، ومن بين كثير من هذه الملامح اخترنا ثمانية أوجه من وجوه الحياة في مصر نرصد من خلالها تطور أحوال المجتمع المصري بين قرنين.

أولا: الوفرة الاقتصادية

لم يتغير حال مصر في شأن الوفرة الاقتصادية بين القرنين، فتلك الأرض التي أطلق عليها "خزائن الأرض" و"مخزن المال والرجال" ظلت محتفظة بخيراتها.

يورد بتس أن القافلة المصرية الذاهبة إلى الحج كانت أحسن تسليحاً وأحسن نظاماً وأكثر أمناً، وهي التي تحمل كسوة الكعبة، ولهذا يفضلها الحجاج على غيرها من القوافل، والقاهرة وافرة العدد تغص بالناس وتزدحم بهم حتى إن بعض الناس يفقد حذاءه من الزحام، ويُطلب الحمار في مصر كما تُطلب العربات في بريطانيا لذلك الوقت[١٩]، وهي تغص بالبضائع والتجار والسفن التي تحمل البضائع، وتُرش الشوارع مرتين يومياً بالنهار للتخفيف من درجة الحرارة، ويتجول بعض الناس بالماء للعطشى مجاناً لكن بعض الشاربين يعطيهم مبلغاً يسيراً، والأسواق تشهد وفرة غذائية والأسعار رخيصة، وفي مصر تُعدُّ أفران صناعية لتهيئة عملية فقس الكتاكيت دون الحاجة إلى حضانة الدجاجات الأمهات، ومع هذا فالمتسولون كُثر والطبقات الفقيرة يبدو عليها الهزال والنحول[٢٠].

ويتحدث بيرتون عن الخانات التي تغص بالتجار في مصر، ويصف كثرة بضائعها، ويصفها بأنها في موقع وسط بين التخلف والتحضر، ومع هذا فإن دلائل الفقر والعوز والهزال تبدو على الناس والحيوانات التي تبدو "عجفاء هزيلة" سواء ما كان منها راقياً أو وضيعاً[٢١].

فكأن الرحالتين اتفقا على الوفرة الاقتصادية وعلى سوء توزيع الثروة في مصر.

ثانيا: الضعف السياسي

وبالرغم من الوفرة الاقتصادية إلا أن الضعف السياسي كان هو حال السلطة في مصر خلال القرنين، لكنها وإن كانت ضعيفة في زمن بتس، إلا أنها وصلت إلى حال مزرية في زمن بيرتون، ففي زمن بيتس كان البنادقة يسلكون بسفنهم إلى مصب النيل في البحر المتوسط عند رشيد ثم يسرقون الماء في سفنهم، ما يترتب عليه اصطباغ البحر بلون الطمي وتحول المصب إلى ماء عذب لمسافة غير قليلة في البحر، "وهم يفعلون ذلك دون التعرض لأي خطر، فليس لدى الأتراك أساطيل للدفاع عن ساحل مصر"[٢٢].

ولئن كان البنادقة يفعلون هذا تسللاً أو حتى إغارة خاطفة، فإن الأمر في زمن بيرتون كان أشد سوءاً، إذ أصبح هدف السيطرة على مصر يداعب أحلام الأوروبيين، وصار الرحالة البريطاني يفكر ماذا سيكسب

---

[١٨] انظر مقال الأستاذ الإمام محمد عبده، "**آثار محمد علي في مصر**"، مجلة المنار ١٧٥/٥ وما بعدها؛ محمد عبده: **الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام**، تحقيق: د. محمد عمارة، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣م)، ٨٥١/١ وما بعدها.

[١٩] كخدمة استدعاء التاكسي في وقتنا المعاصر.

[٢٠] جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٢٢، ٣٠، ٣٣، ٣٤ وما بعدها، ٣٩.

[٢١] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٣٠، ٤١، ٥٠.

[٢٢] جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٢٦، ٢٧.

الغرب من السيطرة على مصر، بل إن الغرب كان قد بدأ تنفيذ المشروع الأخطر الذي سيغير من جغرافية مصر والذي رفضه كل الحكام على مر العصور، وهو مشروع قناة السويس[٢٣]، وكانت مصر مكبلة باتفاقية ١٨٤٠م التي جعلتها سوقاً مفتوحاً للتجارة والصناعة الأوروبية، إلى الحد الذي كان حكام مصر أنفسهم –أسرة محمد علي– يشرعون قوانين تتحايل على هذه الهيمنة الأوروبية، كقانون نظام الدور في الشحن البحري مثلا.

ثالثا: المساجد

إن مشهد المساجد لا يمكن أن يفوت زائراً للقاهرة، فلقد غصت القاهرة بالمساجد في زمان المماليك وتنافس سلاطينهم في بنائها وزخرفتها ووقف الأوقاف عليها، ويتوقع بتس أن مساجد القاهرة بين الخمسة آلاف والستة آلاف مسجد، وفيها ما هو ضخم مشيد متين، ولكل منها من يرعى أحوالها ويقدم الماء للعابرين[٢٤].

تحول هذا المشهد البهيج بعد قرنين إلى مشهد آخر، فيتحدث بيرتون عما حل بالمساجد من إهمال عندما رآها، وذلك بعد سنوات قليلة من نهاية عهد محمد علي وفي مطلع عهد ابنه سعيد، لقد بقيت المساجد كثيرة لكنها تعاني من قلة الرعاية، ويذكر أن مسجدي الأزهر والحسين كانا خاليْن من الزخارف، ثم يرصد أن النمط الذي بني مسجد محمد علي على مثاله يمثل انحطاطاً وسقوطاً لفن عمارة المساجد، وأن المصريين اعتبروا هذا الشكل "يبعث على الانقباض"، وذكر طرفاً من الأحوال البائسة التي خيمت على الأزهر بعد ما كان فيه من مكانة رفيعة[٢٥].

رابعاً: أوضاع أهل الذمة

لاحظ بتس أن المسلمين يرتدون عمائم بيضاء بينما عمائم النصارى بيضاء مخططة بأزرق، وكلاهما يرتدون عباءات سوداء، بينما عباءات اليهود سوداء واسعة وغطاء الرأس عندهم ذو شكل شاذ، إلا أنه يعود فيقرر أنه لا يمكن التفرقة بين المسلمين والأقباط في مصر لتجانس الملامح والأزياء ووحدة اللغة[٢٦].

ولا يختلف الأمر عند بيرتون فهو يشير إلى العمائم الزرقاء التي يرتديها النصارى، كما يشير إلى شعور ديني عام واضح لدى المسلمين تجاه أهل الذمة[٢٧]. ولعل ذلك لما تمتعوا به من نفوذ واسع في زمن محمد علي وأبنائه مما حرَّك مشاعر غضب وتحفز لم يشهدها بتس.

وكان نساء أهل الذمة متحجبات في العهدين، فهذا مفهوم قول بتس الذي تحدث عن أنه حتى الجواري يُبَعْن في الأسواق متحجبات[٢٨]، وهو صريح قول بيرتون الذي ذكر بامتنان أن مسيحياً سوريا في مصر سمح له برؤية وجه زوجته.

---

[٢٣] انظر في مسألة قناة السويس هذه المقالات:
ماذا تعرف عن أخطار وأضرار قناة السويس، هل تضحي مصر بنفسها لمصلحة الأجانب، ماذا قال المؤرخون الأجانب عن قناة السويس، فصل من قصتنا مع الشرعية الدولية.
[٢٤] جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٣.
[٢٥] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٩٠، ٩٢ وما بعدها.
[٢٦] جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣١.
[٢٧] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٩٧.
[٢٨] جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٧.

خامسا: أحوال العبيد

يتفق الرحالتان أن العبيد في مصر أفضل حالاً من العبيد بل وحتى الخدم في أوروبا؛ فيذكر بتس أن الجواري يُعرضن للبيع محجبات، ولكن التاجر (وهو مالكهن في هذه الحال) هو من له الحق في التعرف على عيوبهن بتحسس الأسنان أو الوجه واختبار ما إن كن عذراوات أم لا "بطريقة غير متطرفة"، وأن العبيد لا يُجبرون على التحول إلى الإسلام لا في مصر ولا تركيا ولا الجزائر، وأن العبيد في مرحلة الشباب يتعلمون ويُلحقون بالمدارس وقد يتفوقون كأبناء سادتهم إن كانوا أذكياء، وإذا تحولوا إلى الإسلام تسير أمورهم على نحو أفضل، ويذكر أن العبيد الذين بيعوا في مصر يفخرون أنهم كيوسف عليه السلام الذي بيع في مصر أيضا[٢٩].

ويقرر بيرتون أن العبيد في مصر أحسن حالاً من الخدم في أوروبا، بل "الرقيق في بلاد الشرق عامة يأكل أفضل بكثير من الخدم أو حتى أفراد الطبقات الدنيا ممن هم ليسوا عبيداً (في بريطانيا) فالشريعة الإسلامية تلزم المسلمين بمعاملة رقيقهم برقة بالغة، والمسلمون –بشكل عام– حريصون على الأخذ بتعاليم نبيهم، فالرقيق يعد فردا من أفراد الأسرة"[٣٠].

سادسا: أوضاع الأجانب

في كلا العهدين كانت مصر زاخرة بالأجانب، فقد كانت مركزاً للتجارة بين الشرق والغرب في أيام المماليك، ثم كانت مركزاً للنشاط الاقتصادي الأجنبي الذي وجد في مصر فرصة سانحة بعد اتفاقية لندن ١٨٤٠م، لكن النفوذ الأجنبي في عهد بيرتون كان عظيماً جداً، إذ كان الأجانب عملياً دولة داخل الدولة أو على الحقيقة فوق الدولة.

يذكر بتس أن اللغات المستخدمة في القاهرة لا تقل عن اثنتين وسبعين لغة، ومما يلزم الأجانب –اليونانيون مثالاً– ألا يرتدون شيئاً من اللون الأخضر في ملابسهم، فإن فعلوا هاجمتهم العامة فمزقت ما كان لونه أخضر في ملابسهم، وذلك لخصوصية هذا اللون إذ يرتديه المسلمون وحدهم، ولا يرتدي العمامة الخضراء إلا من هم من سلالة النبي [٣١].

ولا تشير رحلة بتس إلى عداء أو تحفز تجاه الأجانب، على عكس الحال بعد قرنين، فقد كان المصريون يتوجسون من كل أوروبي ولا يثقون فيهم ويحتقرونهم، بل يعتبرون أن من يعلن إسلامه منهم إنما يفعل ذلك لؤماً وحيلة ليتمكن من التجسس عليهم وجمع المعلومات والإحصاءات عن بلادهم، ولهذا فإن بيرتون نفسه اجتهد ألا يُكشف أصله الأوروبي، وادعى أصلاً فارسياً وهندياً وأفغانياً لكي يُطْمَأَنَّ إليه. وفي زمن بيرتون كان قد غلب الأجانب على بعض الأحياء التي صارت أجنبية وصارت تغص بالسكارى، وكان الأجانب يتمتعون بالحماية القنصلية التي يُمكن الحصول عليها بالرشاوى وبعض التحايل ثم يُساء استخدامها فتغتصب بها الحقوق ولا يمكن للقضاء المصري أو لأي جهة استعادة الحق من متمتع بالحماية الأجنبية، ذلك أن "شعار الحماة الطبيعيين للحاصلين على الحماية هو انتهاك القانون لإرضاء غرور موظف إنجليزي تافه"، وكان الفرنسيون أقرب الأوروبيين إلى المصريين بينما

---

[٢٩] جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٧.
[٣٠] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٦٣.
[٣١] جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣١، ٣٤.

الإنجليز واليونانيون والنمساويون والمالطيون هم أكثر الشعوب المكروهة والمحتقرة في مصر، وإن غُلِّف هذا كله بقشرة من المجاملات[٣٢].

وبالرغم من الحظر الصارم للسلاح فقد كان بيرتون يحمل دائماً سلاحه سواء أكان خنجراً أم مسدساً، وكان متمتعاً بالحماية البريطانية، فمع أن الأجانب يتمتعون بامتيازات قانونية واسعة إلا أنه باستطاعتهم أيضا مخالفة القانون القائم، وقد ذكر أن الحكومة تحرم على الأجانب سب أهل البلاد ومع هذا قرر أنه يستطيع استعمال العنف، بل وذكر أنه كان يمكن لليوناني أن يسب بأشنع الألفاظ عجوزاً مصرياً إذا لمسه بعكازه لمسة غير مقصودة، وفسَّر هذا بأن "الخميرة القديمة" لا تزال كامنة في اللاشعور، إذ المصريون يعلمون نفوذ الأجانب والأجانب لا يقصرون في استعماله وإساءة استعماله[٣٣].

سابعا: الخانات/ الوكالات/ الفنادق

وهي الأماكن المعدة لنزول المسافرين والتجار في القاهرة قبل أن يتحولوا عنها إلى غيرها في طريق سفرهم وتجارتهم، وفي كلا الرحلتيْن يبدو الإهمال واضحاً في هذا المرفق، فيتحدث بيتس عن "غرف عارية ليس بها أقل أنواع الأثاث أو بها أدنى أنواعه"، وينبغي على المسافر أن يدفع خمسين بارا أول دخوله ثم بارا واحدة كل أسبوع فيقيم ما شاء أن يقيم[٣٤].

ومثله يتحدث بيرتون عن مثل هذا من ضعف التأثيث أو انعدامه، وسوء نظافة الغرف، إلا أن الأسعار صارت مرتفعة للغاية، ودخلت فيها الأنواع المقنعة من الرشا، فقد كان مضطراً أن يدفع أجرة شهر "حلاوة المفتاح" وأجرة شهر آخر للإقامة ومبلغاً ثالثاً لمن يكنس المكان ويمسحه. لكن الخانات دائما تغص بالتجار والمسافرين، وفيها كل ما يحب أن يراه الرسامون من مشاهد تستثير عيونهم وريشتهم[٣٥].

ومما يلفت النظر أن بتس يتحدث عن المساجد الداخلية في الخانات لأنها تُغلق بالليل لمن يصلي المغرب والعشاء[٣٦]، بينما لا يأتي بيرتون على ذكر مسجد في الخان مع اهتمامه بالتفاصيل، ولا ندري هل هذا من جراء إهمال المساجد فلم تعد تُبنى في الخانات أم هو مما سها عنه بيرتون، لا سيما والخانات كانت تغلق ليلاً في أيامه، فالداعي للمسجد الداخلي ما زال موجوداً.

ثامنا: الشرطة

حضرت الشرطة حضوراً خفيفاً في رحلة بتس، في موطن رقابة قانونية عادلة على من يغشون السلع أو يبيعون خبزاً ناقص الوزن، فهم يعاقبون صاحب الجريمة بالضرب بالفلقة ويصادرون خبزه، وتكون العقوبة من القسوة بحيث إذا لمحهم صاحب الجريمة ولي هارباً تاركاً خبزه[٣٧].

بينما كان للشرطة حضورها الطاغي الوافر في رحلة بيرتون، وهو أمر لا يُستغرب في مجتمع تحول إلى "الدولة الحديثة" وكُسِرت فيه الروابط القبلية والمجتمعات الوسيطة ومُنِع حمل السلاح على الناس؛ لقد كانت الشرطة –بتعبير بيرتون– تمثل عذاباً في مصر لما تتسم به من التطفل، وتضاعفت عقوب

---

[٣٢] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٢٤، ٣٤، ٥٠، ٥٣ وما بعدها، ٩٧، ٩٨، ١٠٦، ١٠٧.
[٣٣] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٣٠، ٧٨.
[٣٤] جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٣، ٣٤.
[٣٥] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٤٩ وما بعدها.
[٣٦] جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٤.
[٣٧] جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٩.

الجرائم عما كانت عليه أيام المماليك خصوصاً الاعتراضات السياسية ولو كانت بسيطة، ووصف بيرتون مشهداً لشرطي يسوق فلاحاً لقسم الشرطة وهو يتوسل إليه ويترجاه، والنساء تهتف خلفه "يا خراشي، يا حسرتي، يا ندامتي"، وإذا أرادات السلطة جمع الناس للتجنيد فإن الشرطة تهاجم التجمعات في المساجد والأسواق فتغلق عليهم الأبواب ثم تسوقهم للتجنيد، ولذلك فإن أجواء الحرب كانت تثير الذعر في الناس وتجعلهم يخشون التجمع حتى من نوى منهم الحج لئلا يقعوا في "فخ" الشرطة، وتبلغ القسوة أن السلطة في عهد محمد علي كانت تمنع النساء من الولولة والندب خلف الرجال المختطفين للتجنيد. وروى بيرتون كيف يمكن للشرطة الليلية أن تعتقل بالشبهة والمزاج من يسير لا يحمل فانوساً مهما كانت معاذيره، وكان الضرب على القفا سلوك اعتيادي يتلقاه كل من دخل قسم الشرطة ولو كان بريئا، والناس لدى الشرطة درجات فمن كان أوروبياً لا يُحبس ومن كان أجنبياً –كالهندي أو الفارسي– متمتعاً بحماية قنصلية أحسنت معاملته، بينما المصري هو المُهان المهضومة حقوقه. ومع هذه القسوة فإن تساهل الشرطة كان ممنوحاً للعاهرات المتهتكات، اللواتي كن يدفعن للدولة ضرائب عالية إلى عهد قريب[٣٨].

خاتمة

هكذا مثلت رحلات الحج سجلاً تاريخياً للمجتمعات المسلمة، فلولا أن هؤلاء الرحالة قصدوا الحج ما كانت رحلاتهم قد حظيت بمثل ما حظيت به من الاهتمام، لقد نالوا قبساً من شرف المكان وشرف الشعيرة إذ توجهوا إليها، وإن اختلفت أغراضهم. وقد قال علماؤنا: أصحب أهل التقوى تنل من شرفهم فإن كلباً صحب أهل الكهف فذُكِر في كتاب الله معهم!

وعلى الجهة الأخرى فقد حظيت البلاد التي أسهمت في شرف رحلة الحج بمصادر عن تاريخها لم تحظ به تلك البلاد التي لم يسعفها حظها بهذا الشرف، وبهذا رفع الحج أقدار بلاد بقدر ما أسهمت في التوصيل إليه.

وتظل رحلة الحج تؤتي ثمارها في كل حين بإذن ربها، وتظل باباً مفتوحاً للشرف ينهل منه من أراد نصيباً، فخلود الأثر والذكر بقدر الاقتراب من الشرف الخالد! وهكذا كتب الله لمكة والمدينة شرفاً خالداً تمتازان به على سائر البلاد، حتى تقوم الساعة!

---

[٣٨] ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص١٦، ٣٠، ٧٦، ٧٧، ٨٢، ١٠٣ وما بعدها.

المصادر والمراجع :

١. محمد زروق، أفوقاي الأندلسي، رحلة أفوقاي الأندلسي، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤م).

٢. قاسم السامرائي انظر، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ط١، الرياض: دار الرفاعي، ١٩٨٣م.

٣. محمد موسى الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، ط١ (جدة: دار الأندلس الخضراء، ٢٠٠٠م).

٤. توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م).

٥. محمد زهير السمهوري وآخرين آي إم لويس، الحدود القصوى للإسلام في إفريقيا وآسيا، ضمن "تراث الإسلام"، بإشراف: شاخت وبوزوروث، ترجمة، سلسلة عالم المعرفة ٨ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٥م)

٦. ر. ف. بودلي، الرسول حياة محمد، ترجمة: محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، (القاهرة: مكتبة مصر، بدون تاريخ).

٧. فيليب حتي، العرب تاريخ موجز، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩١م).

٨. زكريا هاشم زكريا، المستشرقون والإسلام، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٦٥م).

٩. جوزيف بتس (الحاج يوسف)، رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة والمدينة المنورة، ترجمة ودراسة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٥م).

١٠. ريتشارد ف. بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٤م).

١١. الإمام محمد عبده، "آثار محمد علي في مصر"، مجلة المنار ١٧٥/٥ وما بعدها؛ محمد عبده: الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام، تحقيق: د. محمد عمارة، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣م).